نظرات في رحاب الأخلاق في الإسلام



إنّه من العسير أن يحيط إنسان بالقيم الأخلاقية الإسلامية في القرآن والسنّة، وتاريخ الفكر الإسلامي، وإنما سنحاول قدر الإمكان تلمّس طريقنا، وتفتيح الأنظار على قبس من شعلة أخلاق الرحمة في الإسلام.

إنّ الأخلاق في الإسلام تقوم على قاعدة الإيثار وترفض الأثرة، وتحضّ على الجماعية في الغايات، وتحارب الأنانية، وتدعو إلى تزكية النفس بالفضائل، والسلوك الحسن، وتنذر من يشوّه طهر النفس بالميل إلى الهوى والشهوة.

فالتسامي بالنفس عن المحسوسات، والزهد في الدنيا وهي متاع الغرور أمر لابد ّ منه لتحقيق إنسانية الإنسان، وجعل الفضيلة سمة أساسية في سلوكه. وفي هذا كان قول ا□ تعالى: (و َنَفْسٍ و َمَا سَو ّ َاهَا * فَأَلَاْهِ َمَهَا فُجُورَهَا و َتَقَوْوَاهاَ * قَدْ أَنَفْلاَح َ مَنْ زَكَّ َاهاً * و َقَدْ خَابَ مَن ْ دَسّاَها) (الشمس/ 10-7). والقسم هنا هو بالنفس وهو القسم بالعنصر الأهم في تركيب الإنسان، فالإنسان بنفسه وليس ببدنه.

لقد خلق ا□ تعالى النفس وعد ّل قواها مع اختصاص كل ّعضو أو قوة بأمر ما، وأعطاها حرية الإرادة والاختيار لتسلك أحد طريقين، وبي ّن لها ميزة كل ّواحد منهما. فإما أن تسلك طريق التقوى والفضيلة فيكون لها حسن الثواب، وإما أن تسلك طريق الفساد والفجور فيكون لها العقاب الشديد على ما فعلت.

فأمام الإنسان أحد طريقين: الفلاح والغ ُنـْم إذا زكسّى نفسه وسما بها فوق نوازع السوء، أو الخسران المبين والغ ُر°م إذا انحط بالنفس عن مستوى الفضيلة التي هي سمة إنسانيتها فأغرقها في المعاصي والفجور.

تقود النفس الزكية صاحبها إلى التآلف مع غيره وفق قاعدة "التآخي" التي سنَّها الإسلام والتي يُفترض في الإنسان أن يحكَّمها في كلَّ ِ سلوك من أفعاله. وهذه القاعدة تنطلق من أنَّ الإنسان ليس وحيدا ً في هذه الدنيا بل قد أوجده ا∏ تعالى عضوا ً في جماعة عليه أن يعمل من أجل خيرها ليكون له بعض من هذا الخير، ومن أجل سعادتها فسعادته لا تتحقق إلا من خلال سعادة الجماعة. وحتى يتحقق هذا الأمر يجب على الإنسان أن يسارع بالخيرات وأن يقدّم كلّ مساعدة، ويفعل كلّ برّ يمكنه القيام به، وبالتالي فإنّ الانفراد ليس مستحباً، ومن غير المقبول اعتزال الناس، فالقاعدة الشرعية هي: "من يخالط الناس ويتحمّل أذاهم خير ممن لا يخالط الناس ولا يتحمل أذاهم".

إن ّ قاعدة التآخي في الإسلام تكون بأن يحب الإنسان غيره لوجه ا□ دون ابتغاء نفع أو مصلحة، وأن يحب لغيره ما يحب لنفسه، وأن يقدم العون لغيره لأن ّه أخ في ا□، ولهذا كان الخطاب في الإسلام: يا أخ. لأن ّ التآخي في ا□ يصبح رحما ً واصلة بين الناس، والصلة في التآخي لها صفة الثبات في كل ّ ِ حال وزمان ومكان.

وعلى قاعدة التآخي أسّس النبيّ محمّد (ص) روابط جماعته الأولى في المدينة المنورة يوم اقتسم الأنصار والمهاجرون كلّ ما يملك الأنصار وتآخوا في ا□ أخوين ولم يكن الدافع إلى ذلك سوى الأمر الصادر من النبيّ. ولقد عرّفهم ا□ تعالى بأنّ الأخوة نعمة من ا□ جاءت تشدّ أواصر الصلة بين العرب بعد طول عهد التنازع والاقتتال، ولقد جاء الخطاب الإلهي لهم: (وَاذْكُرُوا نَعْمُهَ َ اللّهَ هَ عَلَيْكُمْ ْ إِذْ كُنُتْتُمْ ْ أَعْدَاءً فَأَلَّا َفَ بَيْنَ قُلُلُوبِيكُمْ ْ فَأَصْبَحَ ْتَمُ ْ بِنَعْمَ تَدِهَ إِخْوَانَا) (آل عمران/ 103).

إن "قاعدة "التآخي" تقود إلى سيادة أخلاق الخير وسط الجماعة، وتشجع الأفراد على التضحية، وعلى أن يعمل كل " واحد وفق قاعدة: إن " كل " َ ما يملكه هو من أجل الجماعة حتى لو تنازل أحيانا ً عن بعض ما هو خاص. وبناء على ذلك فإن " الإسلام يمقت الأنانية، ولا يقبل الإنسان الذي يحاول الاستئثار بكل ّ ِ شيء دون غيره، لأن " في مثل هذا السلوك هلاك الفرد والجماعة، وفيه النتيجة السي ّئة المؤدية إلى تشويه إنسانيته، وإبعاد صفة الفضيلة عنه. إلى هؤلاء الأنانيين يأتي استفهام إنكاري في الآية الكريمة: (قُل ْ لـَو ْ أَن ْ تَ مُ هُ رَ مَ هُ لَ كُون َ خَ زَ الزّن رَ ح ْ ه َ ة َ ر َ ب ِ سي إ ِ ذ ً ا لأم ْ س َ ك ْ ت ُ م ْ ه َ ش ْ ي آ الإن ْ ه َ الإن ْ ه َ أَن ُ أَ و الله والاسراء / 100).

توجد في الإنسان نزعة طبيعية إلى الشهوة، وتحقيق اللذة الحسّية، وفيه أيضا ً قدرة عاقلة على ضبط هذه الطبيعة وقيادة النفس إلى السمو الروحي الذي يحقق الفضيلة. وإن متبعي الملذات الحسية يتصفون بالجشع بحيث لو ملكوا كلّ مستودعات الرزق وأسباب الرحمة لقالوا: هل من مزيد. وإذا طلب منهم أن يضحّوا بشيء مما يملكون أظهروا البخل الشديد، وتفنسّنوا في الحديث عن الفقر متناسين أن الله المنادة المنادة ومقسهم الرزق بينهم، ومتغافلين عن انه بعد هذه الحياة الدنيا حياة هي خير وأبقى لن يسعد فيها عبيد الشهوات.

لقد جاء في الحديث الشريف: "عن ابن عمر (رض) قال: أخذ رسول ا□ (ص) بمنكبي وقال: كن في الدنيا كأنّك غريب أو عابر سبيل"[1].

إنّ الأساس في الأخلاق الدينية أنّ الدنيا هي ممرّ إلى الآخرة، لذلك يكون الاهتمام باللذات الحسية أو المطالب والرغبات الجسدية بما يكفل بـُلغة العيش، ويتوجّه الاهتمام الأكبر إلى تزكية النفس بالعمل الفاضل، وبالمعرفة والحكمة، وبالتزام القيم الأخلاقية الخيّرة البعيدة عن التعلّق بالشهوات.

ومع أهمية توفير المطالب الضرورية لقوام حياة الإنسان إلّا أنّ الإسلام ذمّ الميل الكلي والتعلق بالشهوة، لأنّ العفة والترفّع هما الأنفع للإنسان لكي ينال مرضاة ربّه ويحصل له الفوز بالجنّة التي أعدّت للمتقين. وعن هذا الأمر جاءت الآية الكريمة: (زُيِّنَ لَللنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مَنَ النِّسَاءِ وَالاُهْمَاءِ وَالاُهْمَاءُ وَالاُهْمَاءُ وَاللَّهُمَاءُ اللَّامَاءُ اللَّهُمَاءُ اللَّهُمَاءُ وَاللَّهُمَاءُ وَاللَّهُمَاءُ اللَّهُمَاءُ اللَّهُمَاءُ اللَّهُمَاءُ اللَّهُمَاءُ وَاللَّهُمَاءُ وَاللَّهُمَاءُ وَاللَّهُمَاءُ اللَّهُمَاءُ اللَّهُمَاءُ اللَّهُمَاءُ اللَّهُمَاءُ وَاللَّهُمَاءُ اللَّهُمَاءُ اللَّهُمَاءُ وَاللَّهُمَاءُ وَاللَّهُمَاءُ اللَّهُمَاءُ وَاللَّهُمَاءُ وَاللَّهُمُمَاءُ وَاللَّهُمَاءُ وَاللَّهُمَاءُ وَاللَّهُمَاءُ وَاللَّهُمُ وَاللَّهُمُ وَاللَّهُمُ وَاللَّهُمُ وَاللَّهُمُ وَاللَّهُمُ وَاللَّهُمَاءُ وَاللَّهُمُاءُ وَاللَّهُمُ وَاللَّهُمُ وَاللَّهُمُ وَاللَّهُمُ وَاللَّهُمُ وَاللَّهُمُ وَالْهُمُ وَالْلَّهُمُ وَالْمُلْعُمُ وَالْمُ وَالْمُ اللَّهُمُ وَاللَّهُمُ وَاللَّهُمُ وَاللَّهُمُ وَالْمُلْمُ وَاللَّهُمُ وَالْمُلْعُمُونُ وَاللَّهُمُ وَالْمُلْمُ وَاللَّهُمُ وَاللَّهُمُ وَاللَّهُمُ وَاللَّهُمُ وَالْمُلْمُ وَاللَّهُمُ وَالْمُلْمُ وَالْمُلْمُ وَالْمُلْمُ وَالْمُلْمُ وَاللَّهُمُ وَاللَّهُمُ وَاللَّهُمُ وَالْمُلْمُ وَالْمُلْمُ اللَّهُمُ وَالْمُلْمُ اللَّهُمُ اللَّهُمُ اللَّهُ وَالْمُلْمُ وَالْمُلْمُ وَالْمُلْمُ الْمُوالِمُ الْمُلْمُ وَالْمُلْمُ وَالْمُلْمُ وَالْمُلْمُ اللَّهُمُ الْمُلْمُ اللْمُلْمُ وَالْمُلْمُ وَالْمُلْمُ اللَّهُمُ وَالْمُلْمُ الْمُلْمُ الْمُلْمُ اللَّهُمُ اللَّهُمُ اللَّهُمُ وَالْمُلْمُ وَالْمُلْمُ الْمُلْمُ الْمُلْمُ الْمُلْمُ وَالْمُلْمُ اللَّهُمُ اللَّهُمُ اللْمُلْمُ اللَّلْمُ اللَّلُمُ اللْمُلْمُ اللَّهُمُ اللَّلْمُ اللْمُلْمُ اللْمُلْمُ اللْمُلْمُ اللْمُلْمُلُمُ اللَّلْمُ اللَّهُمُ اللَّم

خضع الإنسان لامتحان قوي هو إيجاد شهوة فيه، وشوقه لتوفير كلّ مطالب هذه الشهوة من طعام وشراب ونكاح وبنين وثروات متنوّعة ومقتنيات مختلفة، وهنا و ُضع الإنسان أمام الخيار والإرادة، فإما أن تجذبه هذه الشهوات فيغرق في مادّية جوفاء، وإما أن يتصرّف بمنتهى العفّة مما يكسبه أخلاقا ً سامية توصله إلى نتيجة أهم هي مرضاة ا□، وحسن استقباله للإنسان في اليوم الآخر.

لكن الأخلاق الإسلامية لا تفرض على الإنسان التقتير، أو الكبت، أو فرض نظام تجويع على نفسه، أو التبتل، فهذا ليس من أخلاق الإسلام الذي أمر بالوسطية في الأمر كلّه، ودعا الإنسان لتحصيل الطيّب الحلال من زينة الحياة الدنيا. وقاعدة الوسطية جاءت تربط بين سمو الروح والفكر ومتطلبات البدن والحسن وهذا المنهج في الاعتدال جاء في قول ا□ تعالى: (وَابْتَغَ ِ فَيِمَا آتَاكَ اللَّهُ ُ الدّّاَرَ الآخرِرَةَ وَلا تَنَّسُ نَصَيبَكَ مَنَ الدَّنُنْيَا وَأَحَّسَنْ كَمَا أَحَّسَنَ اللَّهَ إِلَيَّكَ وَلا تَبَعْ ِ النَّهَسَادَ فِي الأرْضِ إِنَّ اللَّهَ الايتُحَال يتُحرِبُّ النَّمَهْسَدِينَ) (القصص/ 77).

إنّ ما يقوم به بعض الناس من الفساد والفعل الباطل الذي يصنّف في خانة الرذيلة يعود عليهم، وهو مهما زاد ونما لا يكون بحال من الأحوال في موقع ما يدعو إليه ا□ تعالى من الإصلاح والأفعال الخبّرة.

إنّ للأخلاق قيمة لا يدانيها شيء آخر في التشريع الإسلامي، لأنّها تحقّق الصلاح، والرحمة، والتآخي والمحبة، وشتى أنواع الفضائل، وتلغي الفساد، والظلم، والتباغض، والكراهية، وشتى أنواع الرذائل.

لهذا وصف ا□ تعالى النبيّ (ص): (و َإِنَّ َكَ لَعَلى خُلاُقٍ عَظِيمٍ) (القلم/ 4)، وقال النبي (ص): "بُعثت لأتمم حُسن الخُلق"[2]. وعدّ عليه الصلاة والسلام الخلق من مقومات الكمال الديني عند المسلم حيث جاء في الحديث الشريف: "أكمل المؤمنين إيمانا ً أحسنهم خُلقا ً"[3].

الهوامش:

- [1]- رواه البخاري.
- [2]- رواه مالك بن أنس وأحمد بن حنبل.
 - [3]- رواه أبو داود وأحمد بن حنبل.

المصدر: كتاب الأخلاق في الإسلام والفلسفة القديمة